مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (6)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (6) 2013

الأبيض وجدلية الألوان في شعر محمد عمران

الدكتور محمد معلا حسن*

(تاريخ الإيداع 6 / 8 / 2012. قبل للنشر في 5 / 12 / 2012)

□ ملخّص □

يدرس هذا البحث استخدام اللون في إبداع محمد عمران الشعري، حيث تبدأ الدراسة بعملية إحصائية تحصي مفردات اللون التي وردت في كامل إبداع الشاعر وصرّح بلفظها. وتركز الدراسة على مسألة هامة، وهي: علاقة اللون الأبيض ببقية الألوان الأخرى في صورتها الجدلية والتفاعلية فيما يعرف بالثنائيات الضدية، وصراع الأضداد، وما يتركه من أثر في اللوحة الشعرية ودلالاتها الإيحائية عند الشاعر، وذلك من خلال نماذج شعرية مختارة من إبداع الشاعر، غير غافلين ما يعرف برديف اللون وأثره في ذلك.

الكلمات المفتاحية: اللون. جدلية الألوان. الثنائيات الضدية. رديف اللون.

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية – كلية الآداب الثانية –جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (6)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (6) 2013

The White Colour and the Dialectics of Colour in the Poetry of Mohammad Omran

Dr. Mohammad M. Hassan*

(Received 6 / 8 / 2012. Accepted 5 / 12 / 2012)

□ ABSTRACT □

This research examines the use of colour motif in the poetic creativity of M. Omran. This study starts with counting the colour vocabulary items employed plainly in the bulk of the poet's creativity. Moreover, this study focuses on an important issue, that is the relationship between the white colour and other colours in its dialectc and interactive form known as paradox. An analysis of selected poetic samples traces the impact of antonyms and their semiotic significance. The colour synonyms, needless to say, will also be referred to.

Key words: colour, colour dialectics, paradox, colour synonym

*Assistant professor, Second Faculty of Arts, Tartous, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

يأتي الشاعر محمد عمران في طليعة شعراء الحداثة الذين أبدوا شغفاً كبيراً باستخدام الألوان في إبداعاتهم الشعرية، فلا نجد قصيدة من قصائده، تخلو من باقة ألوان، ترفل، وتزهو بها تلك القصيدة. يجمعها الشاعر من مفردات الطبيعة الجميلة الحافلة بالألوان الزاهية الساحرة. ففي الكثير من اللوحات الشعرية التي رسمها إبداع محمد عمران، تتعدد الألوان، وتتمازج وتتداخل في إبداع نسيج اللوحة الشعرية، وهذا ما يزيد من جمالية اللوحة، وقيمتها الفنية والإيحائية.

إن الشاعر محمد عمران فنان بارع في استخدام الألوان في إبداع التشكيل الشعري، وحين يمارس هواية الرسم بالكلمات، تبدو ألوانه موحية، ومعبّرة، وغنية بالدلالة والرمز، ولا عجب في ذلك، أليس محمد عمران ابن الطبيعة القروية الزاهية، ترعرع في أحضانها، واستمتع بجمالها الساحر.

قرأتُ الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر، وقد استرعت انتباهي تلك الظاهرة، ظاهرة استخدام اللون، وتوظيفه في إبداعه الشعري، فعقدت العزم على دراسة جانب من جوانب هذه الظاهرة اللونية التي تحتاج إلى رسالة ماجستير لكشف أسراراها، وقد اخترت أكثر هذه الجوانب غموضاً فعنونتُه بـ ((الأبيض، وجدلية الألوان في شعر محمد عمران))، لكي أوضح حدود الدراسة المنحصرة بالتركيز على اللون الأبيض وعلاقته بالألوان الأخرى في نسيج اللوحة الشعرية.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من كونه يدرس ظاهرة تكاد تندر الدراسات فيها، وهي ظاهرة توظيف اللون في الإبداع الشعري، ويرمي البحث إلى دراسة هذه الظاهرة عند شاعر كبير من شعراء الحداثة، والتركيز على جانب مهم منها، وهو: الجدل الذي يثيره اللون الأبيض مع بقية الألوان، ما صرّح به الشاعر، وما استخدمه كرديف للون، فهذا البحث يحمل معاني الجدة والأصالة التي يجب أن تتوفر في البحث العلمي الناجح.

منهجية البحث:

سأتبع في هذه الدراسة منهجاً تكاملياً يستفيد من مختلف المناهج العلمية المستخدمة في دراسة الأدب فسأحتاج إلى المنهج التاريخي في ترتيب المادة والمنهج البنيوي في إحصاء المفردات اللونية التي استخدمها الشاعر وعلى المنهج الجمالي، ومنهج التحليل النفسي في دراسة النصوص وسبر أغوارها وإبراز ما بها من قيم فنية وجمالية.

في دلالة اللون

منذ فجر الجاهلية، وشعراء العربية يستخدمون اللون، ويوظفونه في إبداعاتهم الشعرية مستلهمين المعاني التقليدية والمباشرة لمعاني ودلالات اللون، فراياتهم حمراء في الوقائع والحروب، وبيضاء في السلام والأمن، وأيامهم سوداء في المحن والشدائد، يتحدثون عن اليد البيضاء، والمرأة البيضاء، ويتطيرون من الغراب الأسود، والليل الطويل.

وإذا استعرضنا الدلالات التي حملتها الألوان عبر التاريخ كما وجدها عدد من الباحثين، يمكن القول: ((لقد كان اللون الأبيض من الألوان المميزة في الشعر العربي قديمه وحديثه، فقد كلف به الشاعر الجاهلي وعدّه من مقاييس جمال المرأة))[1].

(1) : سعدون، فريد: "الخطاب الشعري عند عبد الوهاب البياتي"، ص48.

ويرى الباحث محمد عبد المطلب أن: ((سياق المرأة ربما ألصق السياقات بالبياض، ذلك أن هذا اللون قد اكتسب – عرضاً – كثيراً من التعلق بأجواء الصفاء، والإشراق، والحب))[2].

وقد عدّ الزوزني: ((أن البياض من صفات الممدوح في دلالته على الكرم والجود وصفاء السريرة، والشرف، والعصمة من العيوب، فالشاعر الجاهلي وصف الممدوحين بالبياض تلويحاً إلى أنهم أحرار، ولدتهم حرائر، ولم تعرف الإماء فيهم فتورثهم ألوانهن))[3].

وترى الدكتورة هدى صحناوي: ((أن هناك حقبة زمنية هائلة امتدت إلى أكثر من ألف سنة، فرض اللون الأبيض فيها ذاكرته على أفراد الأمة، فالمرأة المثالية بيضاء، والرجل أبيض، ثم حدث انقلاب لوني بسبب ظروف اجتماعية واقتصادية، فتحول الرجل من أبيض إلى أسمر، وصارت البيضاء سمراء، فشهدت المنطقة انقلاباً لونياً حلّ فيه لون محل لون آخر))[4].

أما بالنسبة إلى اللون الأسود، فكان دائماً على النقيض من اللون الأبيض وحمل دلالات تشاؤمية، كما يرى الدكتور فريد السعدون، إذ يقول: ((يعمل اللون الأسود من خلال الذاكرة السلبية، والتشاؤمية التي تشكل حقلاً من الصفات المنفردة، كما يزيد من حدة انعكاس الإحساس المأساوي، والشعور بالانكسار والسوداوية في النص))[5].

ويرى الباحث عياض عبد الرحمن الدوري: ((أن العرب نعتوا به كثيراً من الموصوفات التي أبغضوها، وكرهوا رؤيتها، فالأكباد سوداء، ووجه الجبان أسود، والغربان سود، والظلام والليل كذلك))[6].

وأبرز ما نرى هذه الدلالات التشاؤمية السلبية في القرآن الكريم، هناك العديد من الآيات الكريمة التي تحمل هذه الدلالة، فوجه المؤمن أبيض، ووجه الكافر أسود، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[7]، وقد ورد في سورة أخرى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[8].

أما اللون الأحمر فقد قالوا فيه بأنه لون الدم، والقتال والإثارة، ويوحي بالعنف والهلاك، واللون الأحمر قرين الاحتجاج والرفض والثورة والتضحية من جهة، وقرين الحب والعشق والشهوة من جهة أخرى، وله دلالات أخرى كما ترى الدكتورة هدى صحناوي، إذ تقول: ((للّون الأحمر دلالات عنيفة اكتسبها من انتسابه إلى الألوان الحارة، ومن انتمائه إلى الدم عماد الحياة، هذه الأسباب جعلته يحمل المعاني التالية: الخطر، الموت، الجريمة، الإنذار))[9]، ومن هنا قالوا الخطوط الحمر والإشارة الحمراء، والعين الحمراء. ومن أبرز معانيه ودلالاته المعاصرة: الحرية والثورة.

---

(2) : عبد المطلب، محمد: "شاعرية الألوان عند امرئ القيس"، مجلة فصول، ص59.

(3) : الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: "شرح المعلقات السبع"، ص79.

(4) : صحناوي، هدى: "فضاءات اللون في الشعر العربي"، ص200.

(5) : سعدون، فريد: "بنية الخطاب الشعري عند البياتي"، ص50.

(6) : الدوري، عياض عبد الرحمن: "دلالات اللون في الفن العربي الإسلامي"، ص48.

(7) : القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية:60.

(8) : القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 106–107.

(9) : صحناوي، هدى: "فضاءات اللون في الشعر العربي"، ص203.

أما اللون الأخضر، فهو لون الحياة، والأمل، والتفاؤل، كما يدل الأخضر على الخصب والنعيم وهو لباس أهل الجنة كما ورد في قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**﴾[10].

وترى الدكتورة هدى صحناوي أن اللون الأخضر: ((يعني الحياة بكل ما تحمله من مظاهر الخضرة، وهي الأساس الذي يستوعب جميع الألوان لأنها تمثل الحياة))[11].

إن المفردات التي تدور في فلك اللون الأخضر، وثيقة الصلة بالماء والنبات وغيرها مما له علاقة بالحياة والتجدد والخصوبة. أما اللون الأزرق فهو لون الصفاء، لذلك دلت مفرداته على السكينة والاطمئنان، والتفاؤل بالحياة الجديدة، كما يرمز الأزرق إلى الحزن والكآبة أحياناً ويوحي بالخوف، والعطش والموت. ونختم باللون الأصفر الذي هو لون الغريزة والمرض، والكراهية والبغض، لذلك يتسم اللون الأصفر بسمة العدمية والتقهقر والخيبة واليباس.

اللون والشعر

لقد احتل التشكيل اللوني مساحة هامة في تشكيل الشعر العربي قديمه وحديثه، أغنت رموزه ودلالاته وأسهمت في تعزيز القيمة الفنية والجمالية.

((ويعد اللون بنية أساسية في تشكيل القصيدة الشعرية، ومرتكزاً هاماً تستند عليه الصورة الشعرية شكلاً ومضموناً بما يحمل من عناصر جمالية، وإشعاعات دلالية، تغطي الأبعاد الفنية بكل تشعباتها))[12].

أما ألوان الأشياء، وأشكالها فلها تأثير كبير على أعصابنا ومشاعرنا، كما يرى د.عز الدين إسماعيل: ((إن ألوان الأشياء، وأشكالها هي المظاهر الحسية التي تحدث توتراً في الأعصاب، وحركة في المشاعر، إنها مثيرات حسية، يتفاوت تأثيرها في الناس))[13].

ويذكر الدكتور فريد السعدون أهمية اللون بقوله: ((فاللون من المؤثرات الفنية التي تعزز الفعالية التعبيرية، والتشكيلية للبناء الشعري))[14].

ويرى الباحث قاسم حسين صالح: ((أن اللون لا يؤثر في قدرتنا على التمييز بين الأشياء، بل يغير من مزاجنا وأحاسيسنا، ويؤثر في تفضيلاتنا وخبراتنا الجمالية))[15].

وترى الدكتورة هدى صحناوي: ((أن بعض الشعراء المبدعين تحدثوا عن اللون من منطق فكري، تلك الكلمة التي تعني أن يحمل اللون معنى محدداً له مفهوم سابق بذهن القارئ، فالأحمر يعني التضحية مثلاً والهياج، وربما يعني تجمعاً سياسياً معيناً، والأصفر المرض بالمفهوم العام، واللوم بالمعنى الصوفي، والأسود السر والغموض، المفهومات السابقة ورثناها منذ القديم، فرسخت في عقولنا، وبالتالي لا نحتاج إلى تفكير عميق لكي نسبر أغوارها))[16].

---

(10) : القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية:31.

(11) : صحناوي، هدى: "فضاءات اللون في الشعر العربي"، ص91.

(12) : المصدر السابق، ص5.

(13) : إسماعيل، د. عز الدين: "التفسير النفسي للأدب"، ص67.

(14) : سعدون، فريد: "بنية القصيدة المعاصرة في شعر البياتي"، ص48.

(15) : صالح، قاسم حسين: "سايكولوجية إدراك الألوان"، ص55.

(16) : صحناوي، هدى: "فضاءات اللون في الشعر العربي"، ص90.

هذا وإن كنا نوافق الدكتورة هدى صحناوي في رأيها عن المعنى المحدد للون فيما يخص الشعر القديم، فإننا لا نجد هذا الرأي صائباً في تعميمه على الشعر الحديث، لأن الكلمة في الشعر الحديث تفقد معناها المعجمي المحدد لتحمل معنى سياقياً يتغير من سياق إلى آخر، حيث تصبح رمزاً دلالياً، ومن بينها دلالات الألوان.

وبعد هذا الحديث عن دلالات الألوان، وأهمية اللون في بناء النسيج الشعري وما يترك من تأثير على أحاسيسنا ومشاعرنا ننتقل للحديث عن اللون في التشكيل الشعري عند محمد عمران.

الأبيض وجدلية الألوان

قبل أن أبدأ بدراسة هذه الجانب من توظيف الشاعر محمد عمران للون في إبداعه الشعري لابد من الإشارة إلى أنني قمت بعملية مسح شاملة لأعماله الشعرية الكاملة، أحصيت فيها عدد الكلمات التي صرّح فيها بلفظ اللون، وقد حصلت على النتيجة التالية:

لقد استخدم الشاعر لفظة "أبيض": 90 مرة، و"أسود": 85 مرة، و"أخضر": 112 مرة، و"أزرق": 152 مرة، و"أحمر": 54 مرة، و"أصفر": 21 مرة.

من الإحصائية السابقة نجد أن ترتيب الألوان من حيث عدد مفردات استخدامها في شعر محمد عمران، يأتي على النحو التالي: الأزرق، الأخضر، الأبيض، الأسود، الأحمر، الأصفر، ناهيك عن استخدام رديف اللون في مفردات يصعب حصرها.

ومن الإحصائية نقرأ أن الشاعر محمد عمران يميل إلى التفاؤل والتمسك بالحياة، وهذا ما يعكسه استخدام مفردتي اللونين، الأخضر والأزرق، أكثر من مفردات الألوان الأخرى، وما يؤكده استخدام مفردة اللون الأصفر، الذي يعكس الشعور بالموت والإحباط واليأس أقل من غيرها بكثير. أما التقارب في استخدام مفردتي الأبيض والأسود، فهو يوحي بالتوازن في شخصية الشاعر أمام الثنائيات الضدية التي تؤثر في تلك الشخصية سلباً أو إيجاباً. أما بالنسبة إلى اللون الأحمر الذي يمثل العنف والثورة كما يمثل الحب والشهوة، يحتل في إبداع الشاعر موقفاً معتدلاً قياساً إلى مفردات الألوان الأخرى.

في هذه الدراسة سأقوم بدراسة وتحليل النصوص التي وظف فيها الشاعر أكثر من مفردة لونية وسأحاول تسليط الضوء على ما تثيره تلك العلاقات اللونية من دلالات وإيحاءات وما تعكسه على جماليات اللوحة الشعرية عند محمد عمران.

الأبيض والأسود

من القديم يقف اللونان الأبيض والأسود على طرفي نقيض، فاللون الأبيض يحمل دلالات إيجابية تفاؤلية، واللون الأسود يحمل دلالات سلبية تشاؤمية – كما سبق في حديثنا عن دلالة اللون– فمن البدهي إذا اجتمعا في المشهد الشعري أن يخلقا نوعاً من الثنائية الضدية أو صراع الأضداد ينعكس على جو المشهد الشعري ودلالاته. يقول الشاعر محمد عمران في قصيدة بعنوان:((الدخول الثاني، المجيء من الماء))، وهي من ديوانه((الدخول في شعب بوان))[17]:

((مضغتُ المن والسلوى

سكنت مدائن الماء

أضعت هناك أسمائي

(17) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني"، ص193.

غريباً كنتُ، وجهي يلبس القمصان كيف
تفصّلت
كيف امّحت ألوانها
انصبغت
لساني كان أسود، كان أحمر، كان أبيض
كان مصبغة لكل لغاتهم)).

على الصعيد الشخصي يتحدث الشاعر محمد عمران عن غربته في هذا الزمان فيسقطها على غربة المتنبي في شعب بوان، وإن بدت غربة المتنبي غربة مكانية، فإن غربة محمد عمران تبدو غربة زمانية بامتياز لأنه يعيش حالة ضياع واغتراب عن زمنه زمن الهزيمة والانهيارات على الرغم من أنه يعيش في وطنه، وبين أهله وخلاّنه. فما الذي يجعل الشاعر يشعر بهذا الشعور؟ إن الشاعر المنتمي إلى أمة عريقة ذات الرسالة الخالدة، يشعر بالهوان عندما يتذكر ذلك التاريخ المجيد، متمثلاً بما مضغ من المن والسلوى. وعلى الرغم من أن المكان يؤمن له كل ما يرغب فإن زمنه أدخله في غربة قاتلة حملته إلى حالة من الضياع ففقد أسماءه، وأصبح مسلوب الإرادة غير قادر على الفعل والتأثير، فهناك قوى قاهرة تحاصره وتسيّره كما يحلو لها، ولم يجد الشاعر هنا أفصح من اللون للتعبير عن تلك الغربة وبما أن الغربة تمثل أقسى حالات الصراع النفسي، فقد اعتمد الشاعر على استحضار أكثر من لون للتعبير عنها، فإضافة إلى جدل الأسود والأبيض يضيف إلى اللوحة اللون الأحمر في قوله: **((لساني كان أسود، كان أحمر، كان أبيض))**. إن هذا التدرج اللوني من الأسود، إلى الأحمر، إلى الأبيض، ينقلنا إلى توصيف الحالة حيث الأسود رمز للمعاناة والضياع، واستلاب الإرادة، وهي حالة سلبية تعكس أزمة الشاعر النفسية والفكرية وشعوره بالخيبة والإحباط، ولكن من قلب تلك الحالة الساكنة يبدأ الشعور بالتململ والتوق إلى التمرد والرفض وتغيير ذلك الواقع، وهذا ما حملته دلالة اللون الأحمر، ودلالة الدم والثورة والتضحيات. ثم ينقلنا الشاعر إلى الأبيض الذي يؤكد حتمية الخروج من الأزمة وغيومها السوداء المتلبدة على واقعه إلى جو الحياة الصافية المفعمة بأحلام الشاعر بعد انتصار الإرادة وخروج الشاعر من معاناته التي تمثل على الصعيد العام معاناة شعب بأكمله، هو الشعب العربي ومعاناة أمة بأكملها هي أمته العربية.

وإذا علمنا أن هذه القصيدة تعود في ولادتها إلى ربيع وصيف عام 1970م، انكشف لنا سر هذا التأزم، وهذا الضياع، وهذا الإحباط، إنها حالة الأمة بعد هزيمة حزيران، وأحداث أيلول الأسود، ولكن الملفت للنظر أنه على الرغم من قتامة هذا الجو، يظل الشاعر متشبثاً بخيوط الأمل للخروج من هذا المأزق، وتغيير تلك الحالة.

ويكاد يغيب هذا الجدل بين الأبيض والأسود عن إبداع محمد عمران مدة طويلة، ليعود ثانية في الجزء الرابع من أعماله الشعرية الكاملة في قصيدة ((شجرة النافذة)) من ديوانه الثاني عشر: ((كتاب المائدة))، إذ يقول[18]:

((كان شيء يموت
فيسقط ظلٌّ على النافذة
وأنا كنت أجلس في نعس الوقت
ما بين خيط السواد
وخيط البياض
وكانت طيور الكلام

(18) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الرابع"، ص140.

تتفلت من قفص اللغة المتدلي

على شرفات الظلام)).

يبدأ الشاعر محمد عمران هذا المشهد الشعري بالحديث عن الموت في قوله: ((**كان شيء يموت**))، إنه يضعنا أمام صراع رهيب، هو صراع الموت والحياة، إنه صراعٌ يدقّ جرس الإنذار في مسمع الشاعر وينبهه إلى أن شيئاً خطيراً يحدث، إنه ظلٌّ أسود على نافذة الحياة، والشيء الذي يموت هو في ذات الشاعر، لأنه لا يبدو في حالة طبيعية، إنه يشعر بالتعب والإرهاق من جهة، والملل وفتور الهمة من جهة ثانية، فتضعه هذه الحالة كما يعبّر عنها بين خيط السواد، وخيط البياض، بين الشك واليقين، بين صراع الصحة والمرض. فإذا علمنا أن الشاعر قد أبدع هذه القصيدة، وهو يعاني حالة صراع عنيف مع المرض، المرض العضال الذي بدأ يستشري ويفتك بكليتيه مما يؤدي إلى قصورهما عن العمل، وارتفاع الأملاح في دمه، وغالباً ما يرافق هذه الحالة شعور بالوهن والضعف والدوار، وقد عبر الشاعر عنها أصدق تعبير عندما وصفها بـ "نعس الوقت". ولمّا كان الشعر وليد المعاناة فأية معاناة أكبر من معاناة شاعر يعيش صراع الموت والحياة، صراع الحياة التي بدأت بالذبول، ويريد أن يتمسك بها حتى الرمق الأخير والموت الذي بدأ يدب في أوصاله، ويهدم كيانه النفسي والجسدي. إن معاناة الشاعر أكبر من أن تستوعب أو يسيطر عليها، إنه المسير إلى قدر محتوم، فلا عجب أن يستنفر هذا الخوف طيور الكلام التي بدأت (تتفلت) من قفص اللغة، لماذا؟ لأن قضبان هذا القفص لم تعد في حالة طبيعية، ولم تعد قادرة على جمع وحفظ طيور الكلام، فهل أدخلت المعاناة الشاعر دائرة الهذيان، وفقدان المقدرة على التحكم والضبط فيصحو من غيبوبة ليدخل أخرى، إن وضع الشاعر أصبح منفلتاً سوداوياً مقلقاً محيراً، وسفينته الهائمة بين الموج وصراع الأقدار، لا يعلم على أي بر سترسو وتستقر، فلربما حطمتها الأمواج العاتية، واستقر بها الأمر في ظلمة القاع.

إن آخر مشهد لجدلية الأبيض والأسود في إبداع محمد عمران يظهر في قصيدة بعنوان: ((وجه ريم))، من ديوان ((مديح من أهوى))، وهو الديوان الأخير في إبداع الشاعر قبل الرحيل، يقول في هذا المشهد[19]:

((من رأى ريمَ آتية في البياض

يطوف بها أفقٌ من سواد هتون

من رآها ترفٌّ بخطو الهواء

فيرعش قلب السكون

من رأى اسم ريم

يتنزّه بين الكلام

على كوكب الكائنات القديم)).

من الصعوبة بمكان أن نحيط بملامح هذا الوجه الذي يرسمه محمد عمران في قصيدته ((وجه ريم))، وأن نحصي ونحصر الدلالات والمعاني التي يحملها هذا الوجه، فقد يكون وجه الحياة، وقد يكون وجه القصيدة، وقد يكون وجه المرأة الحلم التي يهواها الشاعر، وقد يكون وجه الحقيقة لأنه وجه كوني الملامح، يصعب تلمّسُ ملامحه إلا في إطار القصيدة العام، فأحياناً يرى ريم امرأة الظن، وأحياناً يراها كالضوء في المصباح، ويرى نهديها كأسين من خمر وبلور، وهي كما يسميها ((ياقوته النور))، والمهم هنا أنها تبرز في جدلية البياض والسواد، فريم الشاعر تأتي من البياض أي من الصفاء والنقاء والطهارة، وهي نورانية الملامح، فهل هي الروح التي تحمل سر الحياة التي نفخها الله

(19) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الرابع"، ص203.

في طينة نقية، بريئة، خالية من الدنس، حملها الطواف إلى هذه الحياة الفانية حيث يتلوث نقاؤها بالشرور والآثام فتقع في الضلال والتيه، ولا خلاص لها إلا بالعودة إلى بارئها في الحالة النورانية لتتخلص من دنس الجسد الذي تسيطر عليه الرغبات والشهوات، وما يعزز هذا الرأي هو ربط ريم بكوكب الكائنات القديم، وهو الأرض، كوكب الحياة المثبتة.

مما تقدم نجد أن جدلية الأبيض والأسود في إبداع محمد عمران الشعري ظهرت في ثلاثة مشاهد، المشهد الأول عكس الظلال التي تركتها هزيمة حزيران 1967م في نفسية الشاعر، وما أثارته من شعور بالإحباط والضياع أمام هذا الحدث الكبير الذي يمثل هزيمة أمة بكاملها.

أما المشهدان الآخران، فهما يعكسان شعوراً وجودياً يعبر عن معاناة الشاعر مع المرض بعد أن شعر أن شمس الحياة تميل إلى الغروب في رحلتها إلى الأبدية.

الأبيض والأحمر

إن جدلية الأبيض والأحمر لا تبلغ من الحدة والعمق ما بلغته جدلية الأبيض والأسود، لأننا إذا اعتبرنا أن الأبيض والأسود على طرفي نقيض، فإننا نعتبر أن الأحمر يمثل محطة متوسطة بينهما في صراع المتناقضات، أو الثنائيات الضدية محطة انتقال أو عبور من الأسود إلى الأبيض عن طريق الثورة التي تسعى إلى التغيير والانفراج، فكيف وظف محمد عمران جدلية الأبيض والأحمر في إبداعه الشعري. يقول الشاعر في قصيدة بعنوان((مراثي بني هلال)) متوجهاً إلى بطل بني هلال "دياب" علَّه يغسل عار الهزيمة، ويعيد الحق إلى نصابه[20]:

((منتظراً طيراً أبابيلا
ترمي من السماء
حجارة تقذف سجيلا
منتظراً خيلا
بيضاء أو حمراء
تعدو على الهواء
تحمل فرساناً بلا أسماء)).

إن الجدل بين الأبيض والأحمر في هذا المشهد الشعري لا يرقى إلى الدرجة التي يحملها التناقض بين الأبيض والأسود حيث لا يختلفان إلا في درجة الشدة، وهذا ما يؤكده استخدام حرف العطف "أو" فالشاعر ينتظر الخيول والفرسان الذين سيعيدون الحق إلى نصابه، وينقذون كرامة هذه الأمة المهزومة في حرب حزيران مع العدو الصهيوني.

وإذا ما اعتبرنا أن الخيول البيضاء، تمثل النضال السلمي، أو السياسي لعودة الحقوق المغتصبة، فإن الخيول الحمراء تمثل النضال المسلّح لعودة تلك الحقوق، ومحو عار الهزيمة. ومن هنا نرى أن الشاعر يصر على إعادة حقوق الأمة سواء بالطرق السلمية أو المسلحة، وهو يفضل الحل السلمي للمسألة لأنه قدم الخيول البيضاء على الخيول الحمراء، وكأنه يريد أن يقول لنا: علينا أن نجربَ الحل السلمي فإن لم يجدِ، ولن يجديَ، كما تصوره في انتظار طير الأبابيل فلابد من الكفاح المسلّح لتحقيق ذلك.

(20) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص144.

وفي مشهد آخر تزداد حدة الصراع بين اللونين الأبيض والأحمر، لأنهما يبدوان على طرفي نقيض فبعد أن يستدعي الشاعر فارس الموج الملثم على لسان عاشقة، والتي تطلب منه أن يمزّق غشاء بكارتها، وأن يكسر الأصداف عن وجهها المعلّب، كما تدعوه إلى التماهي والتوحد[21]:

((مزِّق غشاء بكارتي يا فارس الموج الملثّم
كسِّر الأصداف عن وجهي المعلّب، خلّع
الأبواب وادخل يا جنون الريح، قل لي
كيف أخترق المسافة، كيف أدخل فيك
كيف يصير وجهي
زبداً، وماءً مالحاً. أطفئ شموعي البيض
أشعل جمرتي الحمراء، أشعلني، اشتعل
يا بحر يا قدوس، كل الملك لك)).

في الدعوة إلى إطفاء الشموع البيض دعوة إلى الثورة، ودعوة إلى التجاوز والتخطي، فالأبيض هنا حالة سكون، وخنوع واستسلام للواقع، والشاعر يريد أن يشعل فيه نار الثورة، ليطهره ويبعث فيه الحرارة والحياة، والأحمر هنا حالة تفاعل عاطفية بين عاشقة تبحث عن فتى أحلام وعن فارس منتظر، لكي يؤدي توحدهما إلى ولادة جديدة لحالة جديدة وواقع جديد يكون ثمرة للحب والحرية.

وفي مشهد آخر يجمع الأحمر والأبيض يأخذ الجدل نكهة، وجودية خاصة، إنه جدل الشهوة والخطيئة، وقصة التفاحة التي كانت السبب في هبوط آدم من الجنة، يقول محمد عمران[22]:

((شجرة التفاح
قرب شباكك الأحمر
تعترف لي بخطاياها البيض
آه لشدّ ما أنا آثمٌ
فمرة أنكرت عليها عظمة الهبوط
غفرت لي التفاحة
كيف أغفر لنفسي)).

يضع الشاعر في هذا المشهد مجموعة من الثنائيات الضدية، فيضع الذكورة في مواجهة الأنوثة والشهوة في مواجهة الكبت، والخطيئة في مواجهة الغفران لينقل لنا موقفه من قصة الوجود، قصة آدم وحواء، قصة التفاحة والخطيئة الأولى، قصة أول تمرد وعصيان عرفه الإنسان في مخالفته لأوامر الإله، مما كان سبباً في هبوطه من الجنّة. إن الشاعر يعترف في هذا المشهد أن انطباعه عن قصة التفاحة كان خاطئاً لأنه كان انطباعاً تقليدياً استسلامياً يحمل الشعور بالخطيئة وعقدة الذنب والندم. ولكن كما يبدو، فإن للشاعر موقفاً آخر وفهماً آخر فهو لا يخفي إعجابه بجوهر الحادثة لأنه يراها حالة ثورة وتمرد وعصيان، وتفلت من القيود بحثاً عن استقلال الإرادة وحرية الموقف.

(21) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص220.
(22) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص215.

وربما يذهب الشاعر أبعد من ذلك في تفسير سرّ الهبوط والحياة على الأرض، فهو لا يرى في الهبوط عقوبة ونفياً وخطيئة، إنما يرى تكريماً في حمل رسالة، وتحمّل مسؤولية، فخطيئته التي يحملها كما يتصور مغفورة، وعليه هو أن يغفر لنفسه لكي يعيش الحياة بكل جمالها وروعتها كما يجب أن تعاش.

الأبيض والأخضر

إن جدل الأبيض والأخضر، لا يمكن أن يحمل صورة جدل حاد كما هي الحال في علاقة الأبيض بالألوان الأخرى وقلّما يحمل دلالات سلبية، فهما لا يقعان على طرفي نقيض بل يشتركان في الكثير من الدلالات الإيجابية كالصفاء، والنقاء، والأمل، والحلم، والهدوء، والتفاؤل، يقول الشاعر محمد عمران في قصيدة بعنوان ((الدخول الرابع طيبة))[23]:

((إي حبي
ريحُ الوطن تهبُّ
وهذا وجهك فيها
أي حبي
جيئي في رقص البحارة
في موسيقا المجذاف
وفي نايات الريح
وفي أضلاع المركب
جيئي في الزرقة
في الخضرة
في فرح الأشرعة البيضاء)).

مما لا شكّ فيه أن نكسة حزيران قد أذهلت شعراءنا فلاذ بعضهم بالصمت والانزواء، وانبرى بعضهم يجلد نفسه، ويجلد الأمة بائساً يائساً، ولكن الكثير منهم خرجوا سريعاً من دهشة الذهول، فنفضوا عنهم غبار المأساة، وانطلقوا يدعون إلى بعث الحياة من جديد متيقنين، أن هذه الأمة فينيق، يحترق، ولكن سرعان ما ينفر من رماده، ليكمل دورة الحياة بعزيمة وأمل، ومحمد عمران يقف في طليعة هؤلاء، فبعد ثلاث سنوات، 1970م، يخرج علينا بهذه القصيدة التي يجمع فيها باقة من الألوان الزاهية المتناسقة، يجمع الأزرق، والأخضر، والأبيض، ليؤكد لنا أن الحياة رائعة، ويجب أن تستمر إنه في هذا المقطع يدعو إلى الحب إلى الحياة إلى العمل إلى السواعد لتجاوز المحنة، وهنا يؤكد أن رياح الوطن تهبُّ، تهب لبناء مستقبل الوطن الوطن الذي لن يبنى إلا بالحب، والتعاون، والتآلف بين أبنائه، ولن يبنى إلا بفعل الحركة المتمثل بالرقص، وحركة المجذاف، وغناء الريح، إنها رحلة إلى مستقبل واعد مشرق آمن مزدهر، وهذا ما تعكسه باقة الألوان المتناسقة التي شكلها الشاعر في هذه اللوحة حين جمع الزرقة والخضرة والبياض للوصول إلى عالم آمن مطمئن، يتوّجه الحب والنقاء. وقد لعب اللون دوراً هاماً في رسم ملامح هذا العالم.

وهروباً من عالم الشرور والآثام، يرسم محمد عمران عالمه الخاص عالم الصفاء والنقاء، والحب، فيضعنا أمام لوحة مزركشة بالأخضر والأبيض، هي أقرب إلى عالم الحلم منها إلى عالم الواقع، يقول[24]:

(23) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص215.

(24) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثالث"، ص219.

((أفقٌ طازجٌ
وقعت من فمي نجمة
ومشت في الطريق
قمرٌ أخضر الخطو
مسترسل في البياض العميق
قمرٌ من نبات
تظلل عيناه وجه الطريق)).

إذا علمنا أن عنوان القصيدة التي ينتمي إليها هذا المقطع هو ((أفق النبات)) اتضحت لنا ماهية الأفق الطازج الذي يتحدث عنه الشاعر في هذا المقطع في لوحة أميل إلى السريالية، لأنها مشبعة بالغموض، يستخدم فيها الشاعر لغة جديدة، تقوم على جمع المتناقضات، والمتنافرات. إن محمد عمران يهيم في عالمه الصوفي الغامض، فنراه في أفقه الطازج، أفق النبات، وفجأة تسقط من فمه نجمه، وتمشي في الطريق، فما طبيعة تلك النجمة، هل هي القصيدة التي يبدعها الشاعر؟ هل هي كلمة الحق التي لا يزيح عنه الشاعر؟ هي جوهرة ثمينة قادرة على الحركة والطواف، لأن لكل كلمة هدفاً ترمي إليه، وكلمة محمد عمران الشاعرة، تتحول إلى قمر أخضر، قمر من النباتات والزهور، ترسم عالماً من الصفاء، والنقاء، والعطاء بلا حدود فلولا عطاء أفق النبات والخير الذي يهبه للكائنات الحية، لما كانت هناك حياة على الأرض، وعليك أيها الإنسان أن تخلق هذا العالم، وتسير نحو تحقيقه دائماً، وليكن هدفك وغايتك، وإذا كنت لا تستطيع أن تحققه على هذه الأرض، فما عليك إلا أن تسعى بصفائك ونقائك، وأعمالك الخيرة لبلوغه في الدار الآخرة.

ويقول محمد عمران في المقطع السادس من قصيدة بعنوان ((مدخل ثالث احتفالات)) من ديوانه ((كتاب الملاجة))[25]:

((للسنديان في المقبرة أيضاً
صباحاً
حين لا تتفتح أجفان الموتى
تخضلُّ لحيةُ السنديان
ويهتف طفلٌ!
هو ذا جدي بعينين من ورق أخضر
يرسلُ دموعه البيضاء)).

يتحدث الشاعر عن التاريخ، والذكريات في قريته الملاّجة، وإن أفصح ما يعبر عن تاريخ تلك القرية، هو المقبرة، ومقبرة القرية قديمة، نقرا ماضيها في كتاب السنديان العتيق الذي يظلل تلك المقبرة التي تحضن بصمت قبور الأجداد، إنها السيرة العطرة التي تركوها لنا، نحن الأحفاد، في عيون ورق السنديان الأخضر الذي يرسل دموعه البيضاء فوق القبور الصامتة، فهل أراد الشاعر أن يوطّد العلاقة الطيبة بين الملاّجة، وساكنيها حتى بعد الموت، فكم استقبلت تلك السنديانة العتيقة من جثث الموتى، وهي لا تبخل بدموعها على كل ساكن جديد، أم أراد بالدموع البيضاء تلك الأوراق القديمة التي تهجر الخضرة، وتسقط لتعانق تلك القبور في رحلة الموت والفناء، ولكن مهما يكن فإن الخضرة والبياض في هذه اللوحة الشعرية، لا يحملان إلا الصورة المشرقة والطيبة عن ماضي الملاّجة.

(25) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني"، ص40.

الأبيض والأزرق

الأبيض والأزرق من الألوان المنسجمة التي تدعو إلى التكامل والتآلف في النسق اللوني، فكيف جمعها الشاعر في لوحاته الشعرية، يقول الشاعر في قصيدة بعنوان ((مرفأ الذاكرة الجديدة))[26]:

((حين يقال: نخلة الرياح أثمرت
رمانة البحار أزهرت
وازرقَّ ورد الضوء
حين الأرض كلمة خضراء
والسماء
تفاحة زرقاء
والهواء
قصيدة بيضاءُ
والأمطار سنبلة
حبيبتي
تكون عيناك هما اللتان مرّتا هناك)).

يتحدث الشاعر في هذه اللوحة الشعرية عن الحب، وأثره في الحياة مؤمناً بأن الحب العظيم وحده صانع المعجزات، فحين تثمر نخلة الرياح، وتزهر رمانة البحار، ويصبح ورد الضوء أزرقَ، وترفل الأرض بالخضرة، وتسطع السماء زرقاء صافيةً، ويصبح الهواء قصيدة بيضاء، فكل هذا بفضل نعمة الحب، لأن الحب هو الذي يعطي الأشياء لونها الطبيعي، ونكهتها الحقيقية، ويستحضر لهذا المشهد باقة من الألوان: الأزرق، والأخضر، والأبيض، فالأرض كلمة خضراء، وورد الضوء أزرق والسماء تفاحة زرقاء، والهواء قصيدة بيضاء، والأمطار رمز الخصوبة، تصبح سنبلة، كل هذا بفضل الحب رمز الصفاء، والنقاء، والخصب، مما يعطي الازدهار، والتقدم، والأمن لحياة سعيدة.

وفي مشهد آخر يقول الشاعر محمد عمران[27]:

((صوتك، الذي من ريحان وكرز
زهرة الينبوع
المتناسل من القصب والعسل
هذا الأزرق
الأبيضُ
القرنفلي
القميص المطرّز بكآبة قمر
وعشق نرجسة)).

يتحدث الشاعر عن صوت حبيبته فلا يكتفي باستحضار الأبيض والأزرق بل يستحضر باقة من الألوان الزاهية، فالأخضر في لون الريحان، والأحمر في لون الكرز، ثم يضيف إليها الأزرق والأبيض، والقرنفلي ألوان

(26) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص289.

(27) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني"، ص187.

الصفاء، والنقاء، والشهوة، إنها الألوان التي تعكس جمال الحب، وحنانه، وحلاوته في صفائه، ونقائه، وروعته، وسحره.

ويعود الشاعر ثانية في قصيدة ((اختلاجات))[28]، ليجمع تلك الباقة من الألوان عندما يتحدث عن الجسد المفعم بالحب والشهوة، إذ يقول:

((كانت الغابة زرقاء
اسم أزرق يصعد في الغابة
ويصير جسداً
الجسد يتفتح في الأشجار
أعضاء زرقاء
وخضراء
وحمراء
وبيضاء
الأعضاء كانت نشوى
وكانت الشهوة ترقص على الأوراق)).

يتحدث الشاعر عن غابة زرقاء، وعن اسم يصير أزرق، يصير جسداً يتفتح أعضاءً بكل الألوان: زرقاء، وخضراء، وحمراء، وبيضاء، والأعضاء في نشوة وشهوة عارمة.

عن أية غابة يتحدث، وعن أي اسم يصرح، وعن أي جسد غريب يتحدث؟! نحن نعرف أن الغابة رمز للخضرة، فكيف أصبحت رمزاً للزرقة! إن هذه اللوحة الشعرية من الصعب أن تقرأ إلا من منظور صوفي حيث تصبح جميع هذه المنظورات اللونية منظورات صوفية بدلالاتها اللونية؛ الأزرق للغابة والاسم والجسد، الجسم المنتشي بفرحة العشق الإلهي الذي يعيشه الصوفيون، وهذا ما تفرزه دلالة أزرق عندهم.

ويقول محمد عمران في المقطع الثالث من قصيدة بعنوان بوابة الهند مذكراً بنضال طاغور، وغاندي ضد الاستعمار البريطاني، ويرمز له بالعيون الزرق، واللحم الأبيض[29]:

((واقفاً في بوابة الهند
أشهد السفن حاملات الحديد
أشهد العيون الزرق
واللحوم البيض
تتحول كلّها إلى رصاص
أشهد الرصاص يخترق جسد الهند)).

في المشهد السابق يريد الشاعر أن يدلي بشهادة تاريخية عن وحشية ما فعله الاستعمار الغربي البريطاني في الهند فالسفن التي كان المستعمر يدعي أنها تحمل الحضارة والرقي والتقدم لشعب الهند البائس لم تحمل غير الجنود القتلة، والأسلحة الفتاكة في دخولها، والثروات المنهوبة واللصوص في خروجها، وقد رمز هنا للمستعمر بالعيون الزرق، واللحم الأبيض.

---

(28) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثالث"، ص87.

(29) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الرابع"، ص100.

الأبيض والأصفر

يجمع الشاعر محمد عمران الأبيض والأصفر في مشهدين؛ الأول في قصيدة بعنوان قصيدة ((الطين)) في المقطع السادس والخمسين منها، إذ يقول[30]:

((هذا المنجل الأبيض

كم سنبلة دمعٍ

منحته خصرها

في صفرة الحصاد)).

عن أي منجل أبيض، يتحدث الشاعر، وعن أي سنابل دمع يتحدث وإلى أي موسم حصاد يرمي؟ هل يتحدث عن المعاناة في طريق الوصول إلى الهدف والأمل، لأنه كما يقال: ((لابد دون الشهد من إبر النحل، والأبيض هنا))، والأبيض هنا دلالة على الحدة والقطع، فأن يقال عن السيف بأنه الأبيض فهذا مألوف أما أن تلصق هذه الصفة بمنجل الحصاد فهذا غير مألوف. وهل يتحدث الشاعر عن معركة الحياة التي يتعب فيها الإنسان ويشقى وفي نهاية الموسم ورحلة الحياة لا يجد غير منجل الموت والفناء بانتظاره.

أما المشهد الثاني فقد ورد في قصيدة ((الغراب)) المقطع الرابع إذ يقول الشاعر:

((لعلَّ ذلك السرب الأبيض

من الفراشات

التي كانت ضحكاتها...

يرفُّ الآن هناك...

على زهرة الموت الصفراء)).

يضع الشاعر في هذا المشهد البياض في مواجهة الصفار مستخدماً الثنائية الضدية؛ ثنائية الموت والحياة، الحياة متمثلة في سرب الفراش الأبيض، والموت متمثلاً في زهرته الصفراء مؤكداً أن لكل حياة نهاية، ولعل الشاعر في هذا المشهد يطرح قضية وجودية تعكس معاناته الشخصية مع المرض في أواخر أيامه حيث بدأ الجسد المثقل بالمعاناة والتعب، يفقد الأمل بالعودة إلى الفرح والعافية بعد أن رحل ربيع العمر، وبدأت خطوط دفاعاته تسقط واحدة بعد الأخرى، ولم يبقَ أمامه إلا انتظار فاجعة الموت القادم.

رديف اللون

قد لا يصرح الشاعر بلفظ اللون مباشرة، ولكنه يستخدم من الألفاظ ما يحمل دلالته، كدلالة الدم، والورد على اللون الأحمر، والثلج على اللون الأبيض، والبحر والسماء على اللون الأزرق والنبات على اللون الأخضر، تقول د. هدى صحناوي في تعريف رديف اللون: ((وهي الكلمات التي يوردها شاعر ما للدلالة على لون معين، فلمجرد أن نقرأها تثير فينا إحساساً لونياً، وندرك على وجه اليقين، أن الشاعر أراد بالكلمة لونها، وليست هي بالذات فقط، فقد لا يعني الثلج البرودة، بقدر ما يعني اللون الأبيض بامتداداته، ومعانيه الملحقة باللون))[31].

وكما وجدنا محمد عمران مولعاً، باستخدام اللون في إبداعاته الشعرية نجده مولعاً باستخدام رديف اللون أيضاً ومشاهده أكثر من أن تحصى، ولكن ما يهمنا هنا هو ما يدخل في جدل البياض ونختار هنا مشهدين الأول من قصيدة

(30) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني"، ص207.

(31) : صحناوي، هدى: "فضاءات اللون في الشعر العربي"، ص146.

شاهين يتحدث فيه الشاعر عن مشهد إعدام "شاهين"، وهو معلق على الحبل فيستخدم "الفحم" للدلالة على اللون الأسود، إذ يقول[32]:

((في بوابة الشفق
فحم تدلى على حبل
وأغنية بيضاء
أغنية عذراء)).

في المشهد السابق يستخدم الشاعر كلمة "شفق"، وهو فترة ما قبل شروق الشمس، حيث يصطبغ الأفق باللون الأحمر الخفيف، وهذا دليل على بداية إرهاصات الثورة متمثلة بأبي علي شاهين، وفي ذلك الأفق المحمر يتدلى جسمٌ أسود عبّر عنه بـ "الفحم"، وهو جثة بطله شاهين تتدلى من حبل المشنقة، إن هذا اللون يعكس حجم الفجيعة بقتل شاهين شهيد الثورة الأول وعنوان التمرد في وجه الظلم والعبودية. ثم ينتقل الشاعر ليصرّح باللون الأبيض ليؤكد لنا أن دم شاهين لن يذهب هدراً، فهو قربان حرية، وفاتحة لعصر جديد تصدح فيه أغاني الفرح والعدالة والسلام.

وفي المشهد الثاني يجمع الشاعر بين الأبيض والأخضر، فهو لا يصرح بلفظ اللون الأخضر، وإنما يستخدم ما يوحي به، وهو الأشجار، كرديف للون الأخضر، يقول الشاعر في قصيدة بعنوان شجرة اخضرار الحب[33]:

((يحدث أن يغتسل الهواء بالقصائد البيضاء
والأشجار بالأغاني
يحدث أن ينام قمرٌ من البكاء
في سرير عينين
وتصحو شرفة على فمٍ
يحدث أن يسرّح الصفصاف شعره
على مرايا الماء)).

يتحدث الشاعر في هذا المشهد عن معجزة، وهي معجزة الحب فهي وحدها التي تستطيع أن تنقي، وتنظف الهواء الذي يتنفسه كل الناس، ومادة التنظيف هنا ليست الماء، وإنما القصائد البيضاء، القصائد التي تحمل الصفاء، والنقاء، والتي تؤلف بين قلوب الناس لكي تحيا بأكسجين المحبة، ويدعم الشاعر هنا اللون الأبيض باللون الأخضر الذي يعكس صورة النماء والعطاء اللذين يبعثهما الحب في النفوس، ولكن الشاعر لا يصرح بلفظ اللون، بل يستخدم رديف اللون ممثلاً بالأشجار ومنها الصفصاف.

☆☆☆

(32) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص65.

(33) : عمران، محمد: "الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول"، ص75.

الخاتمة:

الشاعر محمد عمران شاعر قروي، نشأ، وترعرع في أحضان الطبيعة الجميلة الساحرة حيث الأرض لوحة خضراء مزركشة بكل الألوان، فلا عجب أن يكون الشاعر مولعاً بالألوان، ولا عجب من أن تنعكس في لوحاته الشعرية فتزيدها جمالاً وبهاءً.

الشاعر يكثر من استخدام الألوان في قصائده أكثر من أي شاعر آخر، وفي عملية إحصائية لأعماله الشعرية الكاملة وجدت أنه قد استخدم اللون الأزرق: (152) مرة، واللون الأخضر: (112) مرة، واللون الأبيض: (90) مرة، واللون الأسود: (85) مرة، واللون الأحمر: (54) مرة، وأخيراً اللون الأصفر: (21) مرة.

من الإحصائية السابقة نجد أن أكثر الألوان استخداماً عند الشاعر هو اللون الأزرق، وهذا ما يؤكد النزعة الصوفية عند محمد عمران لأن للصوفيين اهتمام خاص باللون الأزرق يليه اللون الأخضر وتقدم هذين اللونين يؤكد على أن روح التفاؤل والأمل أقوى من روح التشاؤم والإحباط، وهذا ما يعكسه تفوق استخدام اللون الأبيض على الأسود، وإن لم يكن بفرق كبير وهذا ما يعكس صراعاً عنيفاً في روح الشاعر، هذا الصراع لا يبدو دموياً وذلك لأن اللون الأحمر يأتي بالدرجة الخامسة مع فارق كبير يصل إلى النصف عن اللونين الأبيض والأسود، أما اللون الأصفر لون الإحباط والهزيمة واليأس والمرض فيأتي أخيراً وبفارق كبير عن استخدام الألوان الأخرى، وهو يعكس جو المرض الذي كان يعيشه الشاعر في أواخر أيامه.

هذا بالنسبة إلى التصريح بذكر الألوان أما استخدام رديف اللون فيزيد ربما بأضعاف عن استخدام اللون بصورة مباشرة.

ومن المشاهد الشعرية التي قمنا بتحليلها والتي استخدم فيها أكثر من لون، كانت تدخل في تفاعل وجدل، وتعكس رؤيا الشاعر للواقع، وحركته الجدلية في استشراف المستقبل والتبصر بالأمور.

وقد لوحظ أنه يستخدم ألوان عدة في رسم لوحاته الشعرية أو رسم اللوحة الواحدة مما يزيد في جمالية اللوحة.

وعلى الرغم من أن الشاعر محمد عمران قد استخدم اللون في سياق الرمز والدلالة الرمزية فإننا قلما نجد الشاعر يخرج عن الدلالة التاريخية الموروثة للرمز كدلالة اللون الأبيض على السلام والأمن، وإشاعة أجواء الصفاء والإشراق والمحبة. واللون الأسود على الظلم والطغيان، وما يثير من رؤيا سلبية تشاؤمية كما ورد في القرآن الكريم. أما اللون الأحمر فقد استخدمه في سياق العنف والتمرد والثورة والاحتجاج كما عكس معاني الحب والشهوة. أما اللون الأخضر فقد عكس لون الحياة والأمل والتفاؤل كما حمل معاني الخصب والحلم بغدٍ أفضل أما اللون الزرق فقد عكس جو الصفاء لذلك دلت مفرداته على السكينة والاطمئنان والتفاؤل بالحياة الجديدة مع ميل الأزرق إلى التشبّع بالمعاني الصوفية التي مال إليها الشاعر في أعماله الأخيرة، أما اللون الأصفر فقد عكس إحساس الشاعر بعدد من الخيبات التي تعرّض لها في حياته مثل إعدام شاهين، وهزيمة حزيران وإحساسه أن الأمور لا تسير كما يشتهي أحياناً إضافة إلى صراعه مع المرض الذي عكس الشعور بالعدمية والتقهقر والخيبة والموت.

ومن الجدير بالذكر هنا أن استخدام أكثر من لون في المشهد الشعري عند محمد عمران كان يزيد من ألق اللوحة، ويعمق من دلالته، وبراعة الشاعر في توظيفه واستخدامه.

☆☆☆

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إسماعيل، د. عز الدين: ((التفسير النفسي للأدب))، ط4، دار العودة، بيروت، 1981م.
3. الدوري، عياض عبد الرحمن: ((دلالات اللون في الفن العربي والإسلامي))، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، 2003م.
4. الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: ((شرح المعلقات السبع))، دار الكتاب العربي، حلب، 1982م.
5. سعدون، د. فريد: ((بنية القصيدة المعاصرة، الخطاب الشعري عند عبد الوهاب البياتي نموذجاً))، رسالة دكتوراه في الأدب العربي الحديث، جامعة دمشق، 2009–2010م.
6. صحناوي، د. هدى: ((فضاءات اللون في الشعر العربي))، ط2، دار الحصاد، دمشق، 2009م.
7. عبد المطلب، محمد: ((شاعرية الألوان عند امرئ القيس))، مجلة فصول، القاهرة، مج 5، ع 2، 1985م.
8. عمران، محمد:
((الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول))، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 2000م.
((الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني))، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 2000م.
((الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثالث))، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 2000م.
((الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الرابع))، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 2000م.
9. قاسم، حسين صالح: ((سايكولوجية إدراك اللون))، دار الرشيد، بغداد، 1982م.

⁂